



هل أخفقت ثورات الربيع العربي وانطفأت أزهارها تحت وهج ما يسمونه الثورة المضادة، على أنني أفضل شخصياً أن أسميه الحراك النقيض، ضنا عليه بكلمة ثورة لما تتطوّي عليه الكلمة من قدسيّة في ضمائّرنا، فهل أخفقت الثورة؟ أم إن بذورها ما تزال حية تنتظر شيئاً من جديد؟ ولماذا لم تتفتح تلك الموجة الأولى من ثورات الربيع العربي عن قيادات ثورية حقيقية ذات رؤية، تستلمه مشروع التغيير الثوري وتلهمه؟

وهل أن مقياس الحكم على نجاح الثورة هو مدى نجاحها في إرساء نظام حكم ديمقراطي وفق منظور الديمقراطيات الغربية؟ أم إن تلك خطوة تالية تُستحق بعد أن تجرف الثورة كل ما يتصل بأدوات وسياسات ورموز النظام العميق وترسي مكانها أدواتها وسياساتها ورموزها في مرحلة التمكين الثوري، قبل الانتقال إلى مرحلة التمكين الديمقراطي الحقيقي على أساس الانتخاب الحر والمواطنة والمساواة والعدل الاجتماعي ، حتى لا يتحول التمكين الثوري إلى "تأييد ثوري" كما آلت إليه الثورة البلشفية وغيرها من ثورات اليسار.

أما القول بأن ثورات الربيع العربي أخفقت في موسمها الأول، فهو إما حكم متسرع من جانب ثوريين قنطروا ولم يعودوا يروا في الأفق ما يبقى الأمل حيا، أو هو موقف رموز الحراك النقيض الذين ينبعون على الدوام بما هو في غير صالح الأمة، إذ هم أعداء التغيير، أو هو قول نفر من ليبراليين ويساريين، كما يزعمون، لا يقبلون من الفكر ومن النجاح ومن الأنظمة إلا ما وافق هواهم.

ثورات الربيع العربي لم تمت وإن ذلت شوكتها، ولا يعجز من يدقق النظر في رصد بعض ما تتشقق عنه أرض بلدان الربيع العربي، بل الوطن العربي كله، من إرهاصات لما هو قادم.

في مصر، التي انقلب فيها العسكر وأذlam النظام القديم على الثورة انقلاباً مدوياً، ألم يقاطع الناس بقضمهم وقضيضهم وبمختلف انتماءاتهم الحزبية الانتخابات الأخيرة لمجلس الشعب بشهادة العالم كله؟ وكانت هذه المقاطعة صفعة للحرك النقيض أدمت وجه رئيسه ورموزه، ونزعـت عنه آخر ورقة توت يستر بها عورته القبيحة، وأثبتـت للدنيـا أن بذور ثورة الخامس والعشرين من يناير كامنة في النفوس، وأن زخم التوعية التي نشرـتها في النفـوس، وفي نفـوس الشـباب بالـذاتـ، ما زـال مـتحـفـزاً لـجـولة جـديـدة سـتمـوجـ بها الشـوارـعـ والمـيـادـينـ، في لـحظـةـ حـرـجةـ وبـكـتـلةـ حـرـجةـ، لـنـ يـسـطـيعـ العـسـكـرـ كـبـحـ جـمـاحـهاـ.ـ مـهـماـ اـشـتـدـ الـبـطـشـ وـتـمـارـىـ أـعـدـاءـ الثـورـةـ.

ومن يتـابـعـ ما يـطـرـحـهـ هـؤـلـاءـ الشـبـابـ منـ اـفـكـارـ وـآـرـاءـ عـلـىـ صـفـحـاتـ التـواـصـلـ الـاجـتمـاعـيـ،ـ سـيـدـرـكـ أـنـ كـلـ وـعـودـ الـانـقـلـابـيـينـ تـبـدـدـتـ وـانـكـشـفـ سـرـابـهاـ.ـ فـدوـائـرـ الـحرـاكـ الـنقـيـضـ لـاـ تـدـرـكـ أـنـ وـاقـعـ الـبـلـادـ بـعـدـ الثـورـةـ لـاـ يـعـودـ كـمـاـ كـانـ قـبـلـهاـ.ـ ذـلـكـ أـنـ الثـورـةـ،ـ وـإـنـ أـخـمـدـتـ مـؤـقـتاـ،ـ تـكـونـ قـدـ حـقـقـتـ أـحـدـ أـهـدـافـهاـ الـهـامـةـ وـهـوـ إـصـابـةـ جـسـدـ الـنـظـامـ الـقـدـيمـ وـمـجـتمـعـهـ بـالـوـهـنـ فـغـداـ أـضـعـفـ وـأـكـثـرـ اـعـتـلاـ عـاـمـاـ كـانـ عـلـيـهـ قـبـلـ الثـورـةـ.

ولـذـلـكـ،ـ فـقـدـ تـسـلـمـ الـانـقـلـابـيـونـ فـيـ مـصـرـ بـلـدـاـ تـعـمـلـ فـيـ جـسـدـهـ حـمـىـ الثـورـةـ الـتـيـ لـاـ يـسـتـطـيـعـونـ إـدـرـاكـهـاـ،ـ بـصـلـفـهـمـ وـغـرـورـهـمـ،ـ فـالـحـمـلـ عـلـيـهـمـ أـنـقـلـ وـالـمـسـؤـلـيـةـ أـفـدـحـ.ـ وـهـذـاـ هوـ جـوـهـرـ التـغـيـيرـ الثـورـيـ إـذـ هـوـ يـتـرـكـ،ـ رـغـمـ اـنـحـسـارـهـ،ـ لـمـنـ يـوـقـفـونـهـ مـؤـقـتاـ مـيـرـاـثـاـ بـنـوـهـ بـهـمـ.ـ وـالـوـهـنـ الـذـيـ يـخـلـفـهـ الـفـعـلـ الثـورـيـ لـاـ يـعـالـجـهـ إـلـاـ الـفـعـلـ الثـورـيـ نـفـسـهـ إـذـ يـعـودـ مـنـ جـدـيدـ.

وـمـاـ عـجـزـ الـنـظـامـ الـانـقـلـابـيـ عـنـ التـصـدـيـ لـمـشـاـكـلـ مـصـرـ الـكـبـرـىـ إـلـاـ نـتـيـجـةـ لـذـلـكـ الـوـهـنـ،ـ رـغـمـ مـاـ تـدـفـقـ عـلـىـ خـزـائـنـ الـنـظـامـ وـجـيـشـهـ وـرـمـوزـهـ مـنـ عـشـراتـ بـلـايـنـ الدـولـارـاتـ مـنـ بـعـضـ الـدـولـ الـعـرـبـيـةـ،ـ الـتـيـ رـاهـنـتـ عـلـىـ الـانـقـلـابـ خـشـيـةـ مـنـ الثـورـةـ.

وـرـبـماـ أـدـرـكـ السـيـسـيـ مـخـاطـرـ الـقـطـيـعـةـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ فـيـثـاتـ الشـبـابـ فـيـ مـصـرـ،ـ فـطـرـ أـمـامـهـ أـخـيـراـ وـعـدـاـ سـرـابـيـاـ جـدـيدـاـ بـتـوـفـيرـ مـئـيـ مـلـيـارـ جـنـيـهـ فـيـ السـنـوـاتـ الـخـمـسـ الـقـادـمـةـ،ـ لـمـاـ سـمـاهـ الـمـشـارـيعـ الشـبـابـيـةـ.ـ نـسـأـلـ اللـهـ أـلـاـ يـكـونـ مـصـيـرـ هـذـهـ الـمـلـيـارـاتـ كـمـصـيـرـ مـلـيـارـاتـ مـشـرـوعـ توـسـيـعـ قـنـاـةـ السـوـيـسـ،ـ الـتـيـ تـسـتـدـيـنـ الـآنـ لـتـمـوـيـلـ عـمـلـيـاتـهـ بـعـدـ أـنـ كـانـتـ مـصـدـرـاـ هـامـاـ لـدـخـلـ الـبـلـادـ مـنـ الـعـمـلـاتـ الـأـجـنـبـيـةـ الصـعـبـةـ.

هـذـاـ فـيـ مـصـرـ،ـ أـمـافـيـ تـونـسـ،ـ رـائـدـ ثـورـاتـ الـرـبـيعـ الـعـرـبـيـ،ـ إـنـ الـبـابـ مـاـ زـالـ مـفـتوـحاـ أـمـامـ تـجـددـ الـفـعـلـ الثـورـيـ الـذـيـ لـمـ يـكـتمـلـ.ـ وـرـغـمـ أـنـ ثـورـةـ تـونـسـ لـمـ يـخـمـدـهـاـ انـقـلـابـ عـسـكـريـ كـمـاـ حـدـثـ فـيـ مـصـرـ،ـ إـنـ الـنـظـامـ الـعـمـيقـ تـمـكـنـ مـنـ الـعـودـةـ إـلـىـ سـدـةـ الـحـكـمـ تـحـتـ عـبـاءـ الـبـاجـيـ قـائـدـ السـبـسـيـ،ـ مـنـتـهـاـ فـيـ ذـلـكـ الـرـوـحـ التـصـالـحـيـةـ الـتـيـ أـبـدـتـهـاـ الـقـوـيـ الثـورـيـةـ،ـ وـمـاـ يـتـحـلـىـ بـهـ رـمـوزـهـ مـنـ بـعـدـ نـظـرـ،ـ وـفـهـمـ جـدـيدـ لـلـوـاقـعـ وـالـانـتـمـاءـ الـحـزـبـيـ الـدـينـيـ.

وـرـبـماـ كـانـتـ تـلـكـ الـرـوـحـ التـصـالـحـيـةـ دـلـيـلاـ عـلـىـ أـنـ الثـورـةـ لـمـ تـنـتـهـ،ـ وـأـنـهـ مـاـ تـزـالـ تـؤـثـرـ فـيـ الـمـجـتمـعـ،ـ وـتـكـشـفـ زـيـفـ رـمـوزـ وـسـيـاسـاتـ وـأـدـوـاتـ الـنـظـامـ الـقـدـيمـ.ـ فـمـرـةـ أـخـرـىـ يـكـشـفـ الـوـهـنـ الـذـيـ خـلـفـهـ الثـورـةـ عـزـ النـظـامـ الـقـدـيمـ الـعـائـدـ لـلـسـلـطـةـ.ـ فـقـدـ أـدـىـ إـخـفـاقـ حـزـبـ نـدـاءـ تـونـسـ الـحـاـكـمـ فـيـ مـواجهـهـ مـشـاـكـلـ الـبـلـادـ إـلـىـ تـصـدـعـهـ وـانـقـسـامـهـ،ـ وـإـنـ اـسـتـمـرـ الـاستـعـصـاءـ فـيـ مـواجهـهـ الـمـشـاـكـلـ الـاـقـتـصـادـيـةـ وـالـأـمـنـيـةـ،ـ فـقـدـ يـكـونـ لـزـاماـ تـجـددـ الـفـعـلـ الثـورـيـ.

وـبـجـوارـ تـونـسـ فـيـ لـيـبـيـاـ مـاـ تـزـالـ الثـورـةـ لـمـ تـنـتـهـ،ـ وـأـنـهـ مـاـ تـزـالـ تـؤـثـرـ فـيـ الـمـجـتمـعـ،ـ وـتـكـشـفـ زـيـفـ رـمـوزـ وـسـيـاسـاتـ وـأـدـوـاتـ الـنـظـامـ الـقـدـيمـ.ـ فـمـرـةـ أـخـرـىـ يـكـشـفـ الـوـهـنـ الـذـيـ خـلـفـهـ الثـورـةـ عـزـ النـظـامـ الـقـدـيمـ الـعـائـدـ لـلـسـلـطـةـ.ـ فـقـدـ أـدـىـ إـخـفـاقـ حـزـبـ نـدـاءـ تـونـسـ الـحـاـكـمـ فـيـ مـواجهـهـ مـشـاـكـلـ الـبـلـادـ إـلـىـ تـصـدـعـهـ وـانـقـسـامـهـ،ـ وـإـنـ اـسـتـمـرـ الـاستـعـصـاءـ فـيـ مـواجهـهـ الـمـشـاـكـلـ الـاـقـتـصـادـيـةـ وـالـأـمـنـيـةـ،ـ فـقـدـ يـكـونـ لـزـاماـ تـجـددـ الـفـعـلـ الثـورـيـ.

وفي الجناح الآخر من الوطن العربي فإن سوريا تستنزف لكن ثورتها تقاتل وتأبى الاستسلام. جيش النظام وهن حتى العظم واستجدى العون، فلا أحزاب إيرانية المتسلقة بمفردات المقاومة، ولا ميليشياتها الطائفية استطاعت أن تهزم الثورة، ولا روسيا القيصر الصغير، التي هبت لنجدة النظام وأعوانه نجحت بعد أكثر من مئة يوم من القصف الجنوبي في استلاب الأرض من الثوار. ولا استطاع تفاصع بعض العرب أو تأمرهم، أو جنون تنظيم الدولة ودوره المشبوه، ولا نفاق الغرب ونفاق بعض الأقليات العرقية، أن يفت من سواعد الغالبية السورية الثائرة من أجل العدل والحرية.

في سوريا ارتوت أرض الشام بدماء الشهداء ودموع النازحين وأثاث المشردين في مخيمات اللجوء، فلا يمكن أن يقبل الشعب السوري، ولا العرب المخلصون معه في كل مكان، أن يعود الوضع كما كان. وكل من يستقرئ تاريخ الثورات على غرار ثورة سوريا، سيدرك أن النصر قادم لا محالة، وإن طال الصراع واشتد النزيف.

ومع أن ثورات الربيع العربي لم تكتس بها بوادي العراق ومدنه كما في تونس ومصر وسوريا واليمن، فإن الوعي الذي فجره الربيع العربي تظهر بشائره في العراق. يخرج العراقيون في وسط البلاد وجنوبها وفي بغداد، هاتفين ضد الفساد ضد الهيمنة الإيرانية، ويقتل بعض رموز الحراك المطالب بالتغيير والإصلاح غيلة برصاص ميليشيات إيران والنظام المحسوب عليها في بغداد.

وفي اليمن، استدرجت الثورة عبر الحوار المطول والاستغفال الملتبس بالتقية الإيرانية إلى انقلاب كامل المواقف، كما في مصر. ولو لا أن القوى العربية في الجزيرة أدركت، ولو متأخرة، المخاطر القادمة إن لم تتحرك، لأصبح اليمن عراقا آخر في الخاصرة الجنوبية الغربية للجزيرة. وما زال الصراع في اليمن قائما ولا بد أن ينتهي لصالح الأغلبية اليمنية ولصالح الجزيرة العربية برمتها مهما كلف الأمر، إذ إن نقيس ذلك هو هيمنة فارسية طائفية لن تعرف المنطقة معها استقرارا، وليس بطش القرامطة بالإنسان والمقدسات منا ببعيد.

إذن فثورات الربيع العربي ما تزال حية، بعد خمس سنوات من أول هتاف دوى في الميادين بسقوط أنظمة تأبدت وطالت سكناها على الكراسي، وفك فسادها بالأمة أيا فتك.

وأما الحديث عن النجاح، فتلك مرحلة متأخرة لا يمكن الخوض فيها ما لم يكتمل الفعل الثوري ويتبؤ السلطة، ويضع حدا للنظام العميق المتحكم بتفاصيل الحياة وبالآليات التطور في مجتمعات بلدان الربيع العربي.

ولكن لماذا لم تفرز تلك الثورات حتى الآن قيادات سياسية وثورية وشعبية تستلهم وتلهم وتقود ولو على المستوى القطري؟ قد يقول بعض المحللين إن تلك الثورات اندلعت على نحو مفاجئ، وأحمدت قبل أن تظهر القيادات البارزة وخاصة في مصر وتونس. غير أن هذا تحليل قاصر لا يراوح سطح المسألة، إذ المفروض أصلا أن تندلع الثورات بقيادات ملهمة تمرست في الفكر والمعرفة والفهم والعمل الحزبي والحرراك النضالي، وجربت سجون الطغيان والاستبداد.

لكننا نلاحظ أن ثورات الربيع العربي اندلعت من دون مثل تلك القيادات واتسمت بطابع شعبي عام، اللهم إلا أن يقول قائل إن قيادات الإخوان المسلمين في مصر، وقيادات حركة النهضة في تونس هي نموذج من تلك القيادات المقصودة التي قادت الفعل الثوري، على رأس جماهير الإخوان في ميدان التحرير وفي تونس وغيرها.

وبصرف النظر عن مدى وجاهة هذا القول، فإن ثورات الربيع العربي لم تفرز حتى الآن تلك النماذج القيادية الجديدة فكرا وثقافة وتجربة، ويظل السؤال لماذا؟

بعد الحرفيين العالميين، وما شهده الوطن العربي من تقسيم واستيلاب واستعمار، اندلعت ثورات وحركات تحرر ونشأت أحزاب منها ما يستلزم التجارب العالمية وخاصة اليسارية، ومنها من يستلزم الهوية العربية القومية والهوية الإسلامية وما يتصل بهما من ثقافة.

وظهرت من ذلك المخاض قيادات ناضلت من أجل الاستقلال والوحدة العربية والأسماء كثيرة، ولعل أبرزها عبد الكريم الخطابي وسعد زغلول وعبد القادر الحسيني وحسن البنا وجمال عبدالناصر وأحمد بن بيلال والحبيب بورقيبة وغيرهم.

في ذلك الزمن كانت الهوية العربية الجامحة هي العنوان وكان الإسلام هو الرديف، وكانت الثقافة الشعبية والجماهيرية تتبّع من هذين البحرين وتصب فيهما. كانت الناس تدرك الوشيعة العربية التي تصل بين أقطارها مهما تباعد المسافات وتعاظمت المخاطر. فحين علم أهل الشام بثورة الخطابي بعد بضعة شهور من قيامها، إذ لم تكن هناك اتصالات سريعة وفورية كما اليوم، خرجوا يتظاهرون تضامناً وتأييداً.

آنذاك كانت التربية ومناهج التعليم لا تغفل الهوية العربية رغم الاستعمار ورغم سطوة أنظمة الاستبداد التي تلت مرحلة الاستقلال، أو هكذا. لو سألت آنذاك المصري من أنت لقال: عربي مصرى، ولو سألت المغربي لقال عربي مغربي وهكذا على كل الأقطار العربية.

وطال زمن الاستبداد باسم القومية والقطريّة، وضاعت فلسطين وقامت إسرائيل، وتوالت هزائم العرب من 1948 مروا بـ 56 وـ 67 وكارثة كامب ديفيد واحتلال بيروت عام 82 وكارثة أوسلو واحتلال بغداد عام 2003. وكانت الضحية هي الهوية العربية التي غيبت تدريجياً لخدمة الأنظمة القطرية المتشظية.

تراجعت جرعة الهوية القومية الجامحة في مناهج التعليم وفي وسائل الإعلام والاتصال الجماهيري وحل محلها شعارات "...أولاً". (ضع في الفراغ اسم البلد العربي الذي تريده). وإذا تكرر الفشل والهزائم كفرت شريحة واسعة من الشعوب بالفكر القومي من دون أن تعتنق منه بديلًا. وأنقلبت بعض القوميات التي تساكن العرب أرضاً ودياراً وأخذت تنادي بالانفصال، بل إن جنوب السودان نجح في مسعاه وقام فيه نظام يحجب الوطن العربي عن وسط إفريقيا الذي ما انغلق يوماً أمامه.

لهذا كله أزعم أن ثورات الربيع العربي لم تفرز حتى الآن قيادات ملهمة ومحركة تأخذ مكانها المناسب في التاريخ. لا بد أن نعود إلى المنابع الأصلية التي تلهم الثقافة الجامحة منعروبة وإسلام، وهذا هو دور الجميع من مفكرين ومربيين ووسائل إعلام ومناهج تعليم. وقد لا يكون نشر الأفكار بين الأجيال الشابة والناشئة عسيراً في زمن أدوات التواصل الاجتماعي.

قبل أيام علق حفيدي على ظهر الطاولة فخشى وقد تدلي أن يسقط فسمعته يصبح بلغة فصحى "أنقذوني..أنقذوني"، ولما سألت والدته كيف تعلم ذلك قالت "إنه يشاهد قنوات جيم وبرامع التي تنطق بالفصحى". أو ليس في هذا عبرة يمكن أن تستقيها في عصر التواصل الاجتماعي لبناء هويتنا العربية الإسلامية الجامحة، وعندها وبها ستظهر من رحم الأمة قيادات تحرك رياح التغيير وتلهم العمل الثوري وتسنّهم.

المصادر: